« إن من البيان لسحرا »

مضى الهزيع الأول من الليل ، وقد انفضّ السامر من مجلس أبى سعيد المخزومى فقيه قريش ، فنهض طالباً النوم فلم يجده ، وكان كلما آوى إلى مضجعه ، تجافى عنه جنبه ، لم يَرَ بداً من روحة فى تلك الليلة المقمرة ، يبدّد بها ماخَيّم على نفسه ، فأبعد النوم عنه . خرج أبو سعيد من منزله وقد استصحب معه أخاً له ، فاتخذا طريقهما سرياً إلى العقيق ، حيث روعة الطبيعة ، ورهبة الليل ، يسريان عن نفس الفقيه .

قال الراوى : مضينا فى طريقنا نتحادث ونتناشد ، فأنشدت أبا سعيد بيتين للعرجىّ :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا صبح تلوّح كالأغرّ الأشقر

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

وكأنّ هذا الخيال المبدع ، والمعنى السامى ، لقيا صفاء فى النفس ، وإشراقاً فى التفكير ، فوقعا فى نفس أبى سعيد موقعاً لامزيد عليه . فقال لصاحبه : أعدهما علىّ ، فأعادهما فقال أبو الساغب : أحسن والله . امرأته طالق إن نطق بحرف غيره حتى يرجع إلى بيته . قال الراوى : انطلقنا والشيخ فى ذهوله ، وأنا أقلب الأمر على وجهيه . وكيف فعل هذا المعنى فى نفس الفقيه ، وما زال شأننا فى إطراق وتفكير ، حتى لقينا عبد الله بن حسن بن حسن . فلما صرنا إليه ، وقف فسلم ، فرددت التحية بأحسن منها . ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال له :

فتلازما عند الفراق صبابةً أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت إلىّ عبد الله وقال : متى أنكرت صاحبك ؟ فقلت : منذ الليلة . فقال : إنا لله ! أىّ كهل أصيبت فيه قريش . ثم مضى فى سبيله ، ومضينا فى سبيلنا ، والشيخ يهمهم بذلك الصوت همهمة تنم عن العجب والنشوة ، حتى لقينا محمد بن عمران ، قاضى المدينة ، يريد مالا له على بغلة له ، ومعه غلام ، على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة ، فسلم ، ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فأجاب :

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

أخذ الفزع من القاضى مأخذه ، فالتفت إلىّ وقال : متى أنكرت صاحبك ؟ قلت آنفاً . فقال : وأى كهل أصيبت فيه قريش . ثم أراد المضى لشأنه . فقلت له : أتدعه هكذا ؟ والله ما آمن عليه ، أن يتهور فى بعض آبار العقيق وأنت ترى أنه فى غيبوبة ، لايدرى من أمره شيئا . فقال القاضى : صدقت .

قال الراوى : وكان محمد بن عمران التيمى ، كثير اللحم ، عظيم البطن ، صغير القدمين ، دقيق الساقين ، يشتد عليه المشى قد أطرق ملياً وكأنه تعاورته فكرتان ، فهور جل ثقال ، وهذا أبو السائب شيخ يخاف عليه السقوط فى بئر من آبار العقيق ، فما عتم أن قال : ياغلام قيد البغلة ، فأخذ القيد ، ووضعه فى رجل أبى السائب ، وأبو السائب ينشد البيت ، ويشير بيده إليه ، ليفهم عنه قصته ، ولكن القاضى كان فى شغل عنه ، فهو يظهر أساهُ مرة بنظرة شاردة وتارة بكلمة « وأى كهل أصيبت فيه قريش » . ولما انتهى من وضع القيد قال لغلامه : ياغلام احمله على بغلتى وألحقه بأهله .

انطلق به الغلام ، وأبو السائب لايفتر عن إنشاد البيت وترديده ، ونحن نتبعهما النظر الكسير ، ونتناقل الحديث عن هذا الكهل . قال الراوى : فلما كانا بحيث علمت أنهما قد فاتا ، أخبرته بخبره ، وقصصت عليه قصته فقال لى القاضى : قبحك الله ماجنا ، فضحت شيخا من شيوخ قريش ، انتهى إليه زهد وعلم ، وغررتنى ، فهلا كشفت لى الأمر وهو على كثب منى ؟ فقلت للقاضى :

(البقية على صفحة ١٩)